



الشيء الآخر

ظهيرة الثامن عشر من آذار عام 2011، وفيما كان آلاف من السوريين يتظاهرون في مدينة درعا هاتفين للحرية، لم يتخيل أحدٌ من هؤلاء أن قوات الأمن والجيش المنتشرة في درعا البلد ستفتح نارا عشوائيا عليهم، وأن سقوط شهداء سيُعلن عن جريمة سيستمرُّ النظام في ارتكابها وممارستها بشكلٍ علنيٍّ فاضح أمام العالم. ستندفق صور ومقاطع فيديو ستشكل مشهداً ساحراً عن الثورة السورية في بداياتها، ثم ستتحول هذه الصور وثيقةٌ تعكسُ وحشية النظام في قصف المدن وتعذيب وتشريد أهلها. نحنُ أمامَ سلسلةٍ من صورٍ تبدو ذات دلالةٍ مكثِّفةٍ، أحد جوانبها أن الضحية تُدين القاتل، لكن الجانب الآخر يبدو أكثر تعقيداً، ثمَّة شُرَكَاء في الجريمة، لا يقتصرون على النظام فقط.

في المسلسل الأمريكي «توين بيكس»، الذي أخرجه ديفيد لينش بموسمين بداية التسعينات، والذي أخرج منه مؤخراً موسماً ثالثاً بعد خمسة وعشرين عاماً، بالتزامن مع مرور ست سنوات على الثورة السورية، يبدو أن ثمَّة صلة مشتركة بين الرؤية التي قدمها لينش في مسلسله وبين الأحداث التي تخللت الثورة. رؤيةٌ يطرحها لينش في محاولة فهم عوالم الجريمة الغامضة، والصلةُ الأكثر ارتباطاً بين العالمين «الخيالي/توين بيكس» و«الواقعي/الثورة السورية»، هي الإجابة على سؤال: من المسؤول والمتورط في الجريمة، وما هي دوافعه؟!

يتجه المحقق «كوبر» إلى «توين بيكس»، للكشف عن ملابسات جريمة وقعت

في مدينة صغيرة على الحدود الأمريكية الكندية. مدينةٌ تقع وسط طبيعة بدائية ونائية، يعيش سكانها بسلام وسكينة. تسحر المدينة «كوبر» الذي ينجذب اهتمامه إلى جمالها وطبيعة سكانها الطيبة، وعلى الرغم من حُدُسهِ بأن قتل واغتصاب «لورا بالمر» جريمة غير عادية، إلا أنه يستغرب وقوع هذه الجريمة غير المألوفة في هذا المكان. يبدأ كوبر بالتحقيق للكشف عن مرتكبي الجريمة، إلا أن توين بيكس تُظهر وجهًا آخر للمحقق «كوبر».

تبدو سورية في مخيلتنا الجمعية، المخيلة التي جهدنا في تصديرها خلال السنوات الماضية عبر حنين دائم إلى زمن جميل لا ينتمي بصلة لواقع ما بعد سنة 2011، تبدو بلدًا هادئًا آمنًا يعيش فيه أناس بسطاء يمارسون حياتهم بأكثر الطرق سلامًا. شعب محب، مرحب بالغرباء، لديه عادات وتقاليد جميلة. لكن ثمة صورة أخرى كانت محجوبة في ذلك الحين الذي نمارسه، صورة تختصر بلدًا قُمِعَ على مدار عقود كاملة، تحلل فيها المجتمع، ومورست عليه كل أساليب التهيب. من كل ذلك يتبادر سؤال إلى الذهن: كيف سمح السوريون باستمرار كل ذلك القمع والتنكيل؟ كيف مرَّ تسليم البلد من دكتاتور الى دكتاتور بسلام؟

يتتبع «كوبر» عدة قرائن وشهادات تدل على أن قاتل «لورا» شخصية غامضة تدعى «بوب»، يُشير إليها العديد من شخصيات المسلسل بطريقة غامضة. يصبح سؤال كوبر من هو «بوب»؟ يستعين بأحلامه وخيالاته وخبرته في ملاحقة هذه الشخصية الغرائبية السفاحية، بعد أن تتحول جريمة قتل «لورا» إلى جرائم متسلسلة تُرتكَب بذكاء شديد. يكتشف كوبر أن «بوب» هو ذاته والد «لورا»، الذي يعترف في حالة إنهيار تراجيدية أنه اغتصب ابنته ثم قتلها. تبدو الجريمة عند هذه النقطة قد حُلَّت، لكن «كوبر» يكتشف أن هذا الحل ما هو إلا الوجه الظاهر للجريمة، وأن ثمة لغزًا أعمق وأكبر يكتنفه مقتل لورا، وهو مرتبط بشخصية «بوب» التي تظهر في المسلسل على أنها التجسيد الحقيقي للشّر، ثم يتحول سؤاله من هو «بوب» هذا؟!

منذ نهاية سنة 2012 كشفت الثورة وجهًا آخر عن سورية، عندما تحوّلت الجريمة في سورية، من جريمة يقوم بها النظام متمثلًا برأسه بشار الأسد، إلى جريمة متسلسلة يضيع فيها وجه القاتل. ففي بداية الحراك المدني للثورة أُثيرت كثيرٌ من التساؤلات حول فساد ناشطين وارتباطهم بجهات خارجية، وبعضهم تحدث عن تعاون هؤلاء الناشطين مع النظام الذي استطاع ابتزازهم ثم تجنيدهم. انقلب الحراك المدني، ولأسباب كثيرة، إلى حراك مسلح اندرج فيه منشقون عن

الجيش ممن رفضوا قتل المتظاهرين، لتنتقل الثورة إلى مسار آخر استطاع فيه المنضوون تحته أن يحرروا مساحة واسعة من سورية، حيث وصلوا إلى حدود العاصمة دمشق. في ذلك التاريخ بدأ أن سقوط النظام مسألة وقت، وأن المجرمين على موعد ليساقوا إلى المحاكمات، ولكن هذه الانتقالة سوف تزيد من العنف والدموية، وتحديدًا مع تصدر الفصائل الإسلامية الواجحة، والتي مهدت لظهور داعش، بالتزامن مع فساد واسع للمعارضة السياسية والعديد من منظمات المجتمع المدني، بحيث سوف يبقى النقاش حول من هو المسؤول عن ذلك التحول، وما هي أوجه الصراع بالضبط، ومع من تتصارع؟ لتتوالى الاتهامات التي يكيلها كل طرف إلى الآخر حول مسؤوليته عن هذا الخراب والدمار، ولنجد أنفسنا أمام سؤال آخر: هل إزاحة بشار الأسد ومحاكمته بالإضافة إلى المتورطين في المجازر، وهو أمر لا مجال لنقاشه، سيعني حلًا لهذه الجريمة؟

تُظهرُ تحقيقات كوبر وعلاقته بشخصيات المسلسل وجهًا آخر لسكان «توين بيكس»، أبرزه الفساد الذي يكتنف كثيرًا من الشخصيات التي تبحث عن مكاسب مادية، يتجلى ذلك في صراع حول أراضي كبيرة يحاول من خلالها «بين هورن»، وهو مالك فندق المدينة، أن يمتلكها ويستثمر فيها. لاحقًا نكتشف أن هنالك كثيرًا من الجهات الخارجية التي ترتبط بهذا الصراع، الذي يحركه المال والرغبة بالسيطرة. ثم يدخل الفساد دائرة أصغر الشخصيات في المسلسل وأبسطها، حتى مشاعر الحب البريئة لا تنجو من الرغبات المشوهة، التي يكشف عنها مقتل «لورا». يتوه «كوبر» بين الخيال والواقع، ففي بحثه العميق حول «بوب» يصطدم بتاريخه الشخصي وتكوينه النفسي، ثم يصطدم بمحركات الرغبة الإنسانية التي قامت على تاريخ طويل من العنف. في هذا البحث يجد كوبر نفسه في منطقة غرائبية، يبدو أنها ترمز إلى أعماق كوبر وأحلامه المتصلة بعوالم أخرى موازية. هذه المنطقة التي جسدها لينش في واحدة من أجمل مشاهد اللاوعي والأحلام في السينما، والتي يختتم بها الموسم الثاني من المسلسل.

مع ظهور داعش وسيطرتها على مساحات واسعة من سورية، يبدو أننا دخلنا الجانب الأكثر غرابة في هذه السلسلة الطويلة من الجرائم المرتكبة منذ انطلاق الثورة السورية. وعلى الرغم من الإشارة إلى أيادي خارجية بما فيها النظام في التورط في خلقها، إلا أن كثيرًا من السوريين انضموا تحت لواء داعش وساعدوا في إقامة دولتها، ذلك ما سيكشف جانبًا آخر من العنف المتوارث في دواخلنا، والذي يحتاج تفسيره إلى البعد «التاريخي/الديني» والبعد «النفسي» للتركيبة

